الغرور

((وكل شيء عنده بمقدار)) .. سورة الرعد : الاية ٨

و ((... من كل شيء موزون)) .. سورة الحجر : الاية ١٩

هكذا يقول الله سبحانه في القران الكريم فكل شيء مقدر بمقداره ، وكل شيء موزون بوزن .

وحيث ان الانسان ناقص بالطبع وامامه درجات لا تتناهى ، دنيا واخرة ، فكل ظن كمال ، خلاف الوزن والتقدير ، وخلاف الحق والحقيقة.

وهذا هو (الغرور)

- انك ان اغتررت بمالك – والمال عرضة الزوال – كنت مغرورا لانه تقدير للمال ، بغير قدره .

- وان اغتررت بجمالك – والجمال ظل زائل – كنت مغرورا لانه تقدير للجمال بالدوام وامكان الاعتماد عليه ، بينما ليس هو كذلك ، بل يكون حينا ويعدم احيانا.

- وان اغتررت بعلمك والعلم بحر لجّي ، ولا يتمكن الانسان من احتوائه الا كمن يقدر من اغتراف غرفة من البحر – كنت مغرورا ، لانك ظننت الكمال ، وانت بعد في اول المراحل .. وهكذا من اغتر بسلطانه ، وقوته وسائر مزاياه .

اما من اغتر بما ليس بميزة واقعية ، فهو (مغرور مركب) مثل (الجاهل المركب) انه مرة مغرور لانه حسب النقص كمالا ، ومرة اخرى مغرور لانه حسب الوصول الى النهاية في كماله المزعوم.

من هذه الجهة كان الغرور مذموما ، انه كذب وخلاف الواقع.

من جهة اخرى يكون مذموما ، لانه يوقف بالانسان الى المراتب الدانية من الكمال ويجمد الفكر عن الانطلاق نحو افاق الكمالات الواسعة ، ونحو ابعاد الفضيلة الشاسعة.

ولذا ذمه الاسلام ذما قارصا ، وارصد له اكبر قدر من التنفير والذم.

قال القران الحكيم : ((... فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ...)) في سورة لقمان : الاية ٣٣ ، فتقعدون عن اكتساب الكمال اللائق بكم اعتمادا على الدنيا ، وماقدمت اليكم من بهارجها وزيفها ((... ولا يغرنكم بالله الغرور)) .. سورة لقمان : الاية ٣٣

فالغرور هو الشيء الذي يسبب غرور الانسان سواء كان مالا او جاها او علما او عملا .. فان هذه الامور تغر الانسان بالله ، فلا يدرك ما راده الله سبحانه في السير السريع الدائب نحو الفضيلة والعمل الصالح.

وفي اية اخرى تذم اهل الغرور يقول سبحانه : ((... ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور)) .. سورة الحديد : الاية ١٤

ولنقف قليلا عند قوله تعالى : ((وغرتكم الاماني)) ان الانسان يتمنى (بقاء المال) و (بقاء العمر) و (بقاء الاولاد) و (بقاء المنصب) كما يتمنى الامور المستقبلية ، من جاه يترقبه ، او مال ينتظره ، او ما شابه ، وهذه الاماني هي التي تحول بين الانسان وبين الطاعة، فاذا قلت له : لم لا تحج ؟ قال : في السنة المقبلة – لانه يتمنى بقاء العمر – واذا قلت له لم لا تزكي؟ قال : سوف ازكي – لانه يتمنى بقاء ماله او وفرته .. واذا قلت له : لم تصرف عمرك باطلا ؟ قال : سأتجرد للعلم والعمل – لأنه يظن ان العمر سيمتد به حتى يفعل مايريد وهكذا.

ان الخير لا يحصل بالامنية ، والشر لايذهب بالامنية : ((ليس بأمانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ...)) .. سورة النساء : الاية ١٢٣

ولذا ورد الرصيد الكبير من الروايات حول ذم الغرور.

قال رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) : (حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من ملاء الارض من المغترين) .. جامع السعادات : ٣\٧

أرأيت كيف يربح المهندس الذي يشتغل ساعة ، وينام طول ليله بملء جفنيه ، حينما يخسر العامل وان كد ليل نهار ، ان الاول يأخذ بتصميم بناء في نصف ساعة خمسة دنانير ، بينما الكادح ياخذ دينارا لعمل اثني عشرة ساعة ؟

وهكذا الفرق بين المتقي الذي يصلي واجبه ، وينام ليله وبين المغرور الذي يصلي ليل نهار يظن ان صلاته عظيمه ، وانه قد اسدى بذلك خدمة كبرى لله سبحانه.

وقال الامام الصادق عليه السلام : (المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الاخرة مغبون ، لانه باع الافضل بالادنى ، ولا تعجب من نفسك ، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك ، أن لعلك تبقى ، وربما اغتررت بطول عمرك واولادك واصحابك ، لعلك تنجو بهم ، وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مامولك وهواك ، فظننت انك صادق ومصيب ، وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ، ولعل الله يعلم الاخلاص ، وربما افتخرت بعلمك ونسبك وانت غافل من مضمرات ما في غيب الله تعالى ، وربما توهمت انك تدعو الله تعالى وانت تدعو سواه ، وربما حسبت انك ناصح للخلق ، وانت تريدهم لنفسك ان يميلوا اليك ، وربما ذممت نفسك وانت تمدحها على الحقيقة) .. جامع السعادات : ٣\٧

هناك نوع اخر من الغرور يبتلى به الكثير من الناس ، يدعون بناتهم كيما يحصلون على زوج مرغوب فيه مالا او جاها او ما شابه . أو يتربصون بأنفسهم وهم في ريعان الشباب ابتغاء زوجة يتخيلونها او يتركون معلما لائقا طلبا لغيره ، او لا يهتبلون فرصة ثمينة تربصا لاحسن منها ، وهكذا .

واذا بهم عوانس وبهم كهولا ، ويبقون بلا معلم ، وقد ذهبت الفرصة ، وبان الغرور سرابا خادعا ، وخيالا باطلا ، فيقولون :

الا ليت الشباب يعود يوما فنخبره بما فعل المشيب

والجواب : ليت ، وهل ينفع شيئا ليت ؟.

ونوع اخر من الغرور ، الاعتماد على النفس أو القوة أو ما اشبه ، مما يحول دون التهيؤ الكامل ، لمواجهة الامر المترقّب ، وغالبا ما يسبب هذا النوع من الغرور انحطاط الامم وتأخر الاذكياء ، وانكسار التجار ، بينما الذي ليس بمغرور يجد ويجتهد لئلا يبقى في اخر القافلة.

وقصة السلحفاة والارنب مشهورة ، حيث تشارطا على قطع المسافة من مبدأ معلوم الى شجرة معينة ، فأيهما سبق صاحبه كان له السبق ، فاشتغل الارنب بلعبه ولهوه ، اعتمادا على سرعته وقفزه ، بينما اهتمت السلحفاة في المشي ، واذا بالارنب يتلفت ، ليرى السلحفاة عند الشجرة ، حيث السبق لها اذ تقدمت في السبق .

وفي مقابل الغرور الفطانة والكياسة .

الفطن الكيس ، هو الذي يقدر الامور حق قدرها ، وينظر الى الاشياء بالمنظار الصحيح ، ولذا يدأب ابدا ، وان كان احسن الناس علما وعملا ومالا وجمالا وجاها ومنصبا .. ومثله حري بالتقدم والفوز ، سواء كان كيّسا في امور دنياه او في امور اخرته .

نعم الكياسة الحقه هي التي كانت بالنسبة الى امور الاخرة.

قال الامام الصادق عليه السلام : (اعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني ، الا بصدق الانابة الى الله ، والاخبات له ، ومعرفة عيوب احوالك، من حيث لا يوافق العقل والعلم ، ولا يحتمله الدين والشريعه وسنن القدوة ، و أئمة الهدى ، وان كنت راضيا بما انت فيه ، فما احد اشقى بعملك منك ، واضيع عمرا ، فأورثت حسرة يوم القيامة)... جامع السعادات : ٣\٣٤

فانه ليس متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل ، والدنيا ليست الا لعبا ولهوا ... فالكيس الفطن هو الذي يهيء نفسه لاخرته ، ويدأب ليل نهار لتحصيل المقامات الرفيعة هناك .

وليس معنى هذا ان يترك الانسان الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الاخرة ومن الجدير بالانسان ان يواظب على نفسه حتى لا يغتر.

ومن المشهور ان سبب فناء امّة وقيام امّة ، او بوار حكومة او تجدد حكومة ، هو ان الاولى من الامة او الحكومة تكسل وتترهل فتفقد عنصر البقاء ويأخذها الغرور ، فلا تعمل ، بينما تعمل الامة الثانية وتنشط نواة الحكومة المستقبلة ، فتأخذ الثانية مكان الاولى.

شـكرا